بنية الحنين الكولونيالي في الرواية الفلسطينية: تأويل سرديات العودة المؤجلة في أدب الشتات

Colonial Nostalgia's Structure in the Palestinian Novel: An Interpretation of the Narratives of Deferred Return in Diaspora Literature.

La structure de la nostalgie coloniale dans le roman palestinien : une interprétation des récits de retour différé dans la littérature de la diaspora.

نسرين عطية[1] *، محمد كنتاوي[2]،

تاريخ الإرسال: 2025/09/17 تاريخ القبول: 2025/11/08 تاريخ النشر: 2026/03/30

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى استكشاف تمثلات الحنين الكولونيالي في الرواية الفلسطينية، من خلال تفكيك سرديات "العودة المؤجلة" بوصفها إستراتيجية سردية مقاومة تسعى إلى إعادة بناء الذاكرة الجماعية في مواجهة فعل الاقتلاع الاستعماري. فالحنين الفلسطيني لا ينحصر في بعده الانفعالي الفردي، وإنما يتجاوز ذلك ليشكل أفقاً معرفياً وثقافياً، يتم فيه تحويل الماضي المفقود إلى طاقة رمزية فاعلة تستبطن معنى المقاومة. إن الرواية الفلسطينية، خصوصاً في سياقات المنفى والشتات، لا تكتفي بتمثيل الحنين كنوستالجيا رومانسية، بل تُحوّله إلى خطاب ثقافي مركب، يتقاطع فيه التاريخ مع الخيال، والذاكرة الفردية مع الذاكرة الجمعية. ولذا، فإن هذه الدراسة تعتمد مقاربة نقدية تُبرز كيفية إعادة تشكيل المكان والزمان في النصوص الروائية، عبر رموز محملة بالدلالة مثل "المفتاح" و"شجرة الزيتون" و"البيت"، التي تتحول من موجودات مادية إلى أيقونات للحق والذاكرة. ومن خلال ذلك، تكشف الدراسة أن "العودة المؤجلة" ليست مجرد حلم مؤجل، بل هي ممارسة سردية تضمن استمرار حضور فلسطين في المخيلة العربية، وتمنح الوجود الفلسطيني بعداً لا ينكسر أمام الزمن أو المنفى.

الكلمات المفتاحية: الرواية الفلسطينية؛ الحنين الكولونيالي؛ العودة المؤجلة؛ الذاكرة؛ المنفى.

Abstract:

This study seeks to explore the representations of colonial nostalgia in the Palestinian novel by deconstructing the narratives of the "delayed return." These narratives are viewed as a resistant storytelling strategy that aims to rebuild collective memory in the face of the colonial act of uprooting. Palestinian nostalgia is not limited to its emotional and individual dimension; rather, it extends to form an epistemological and cultural horizon where the lost past is transformed into an active symbolic energy that internalizes the meaning of resistance. The Palestinian novel, particularly in contexts of exile and diaspora, does not merely represent nostalgia as a romantic yearning. Instead, it transforms it into a complex cultural discourse where history intersects with imagination, and individual memory with collective memory. Therefore, this study adopts a critical

*المؤلف المراسل: نسرين عطية

[1] Amin Al-Aqal Hajj Musa Akhamouk Tamengst: Algeria, atianesrine@univ-tam.dz .
[2] University of Ahmed Draria Adrar: Algeria, kantmed2301@univ-adrar.edu.dz .

approach that highlights how space and time are reshaped in these novels through highly symbolic elements such as the "key," the "olive tree," and the "house." These objects are transformed from mere material entities into icons of right and memory. Through this analysis, the study reveals that the "delayed return" is not just a postponed dream; it is a narrative practice that ensures the continued presence of Palestine in the Arab imagination and gives the Palestinian existence an unbroken dimension against time or exile.
Keywords: Palestinian novel; colonial nostalgia; delayed return; memory; exile.

Résumé :

Cette étude vise à explorer les représentations de la nostalgie coloniale dans le roman palestinien en déconstruisant les récits du « retour différé ». Ces récits sont considérés comme une stratégie narrative de résistance qui vise à reconstruire la mémoire collective face à l'acte colonial de déracinement. La nostalgie palestinienne ne se limite pas à sa dimension émotionnelle et individuelle ; elle s'étend plutôt pour former un horizon épistémologique et culturel où le passé perdu est transformé en une énergie symbolique active qui intériorise le sens de la résistance. Le roman palestinien, en particulier dans les contextes d'exil et de diaspora, ne représente pas simplement la nostalgie comme un désir romantique. Au contraire, il la transforme en un discours culturel complexe où l'histoire croise l'imagination, et la mémoire individuelle la mémoire collective. Par conséquent, cette étude adopte une approche critique qui met en évidence la manière dont l'espace et le temps sont remodelés dans ces romans à travers des éléments hautement symboliques tels que la « clé », l'« olivier » et la « maison ». Ces objets sont transformés de simples entités matérielles en icônes du droit et de la mémoire. À travers cette analyse, l'étude révèle que le « retour différé » n'est pas seulement un rêve reporté ; c'est une pratique narrative qui assure la présence continue de la Palestine dans l'imaginaire arabe et donne à l'existence palestinienne une dimension ininterrompue face au temps ou à l'exil.
Mots clés : roman palestinien; nostalgie coloniale; retour différé; mémoire; exil.

مقدمة

منذ اللحظة التأسيسية للنكبة الفلسطينية عام 1948، لم تعد الرواية الفلسطينية مجرّد جنس أدبي يسعى إلى الحكي والمتعة الجمالية، بل غدت فضاءً موازياً للذاكرة، وخزاناً رمزياً يحفظ تفاصيل الجرح التاريخي ويؤطر هوية شعب شُرِّد من أرضه قسراً. ولعلّ ما يميز التجربة الفلسطينية في بعدها السردي هو قدرتها على تحويل المأساة إلى نصّ، والنص إلى أداة للمقاومة الثقافية. فالحنين الذي تحمله هذه النصوص ليس انفعالاً عابراً بالزمن الماضي، بل هو بنية مركّبة تتجاوز الذات الفردية إلى الجماعة، وتستبطن وعياً بالاقتلاع الكولونيالي وما خلّفه من فراغات في المكان والزمان.

إن الحديث عن بنية الحنين الكولونيالي في الرواية الفلسطينية يحيلنا إلى مقاربة نقدية مزدوجة: مقاربة تستحضر جذور الحنين في الفكر الإنساني من جهة، وتعيد مساءلة حدوده التقليدية في ضوء التجربة الفلسطينية من جهة أخرى. فالحنين في السياق الغربي ارتبط غالباً بظاهرة العودة إلى الماضي الفردي أو استرجاع الفردوس المفقود، لكنه في النص

الفلسطيني يتخذ بعداً مختلفاً، لأنه مرتبط بصدمة الاقتلاع وبفعل سياسي منظَّم حوّل الفلسطيني من ساكن في أرضه إلى لاجئ يبحث عن ذاته في المنفى. ومن هنا تتبلور الإشكالية البحثية الرئيسة: كيف تبني الرواية الفلسطينية في سياقات الشتات والمنفى بنية حنين كولونيالي مغايرة، وكيف يتم تأويل سرديات "العودة المؤجلة" لتغدو شكلاً من أشكال المقاومة السردية التي تعيد بناء الذاكرة وتقاوم النسيان؟ تتفرّع عن هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات الفرعية:

- كيف يتحول الحنين من مجرد شعور إلى أداة معرفية وثقافية؟
- ما هي الرموز السردية الأكثر حضوراً في تمثيل الذاكرة الفلسطينية، وكيف تكتسب دلالاتها الكولونيالية؟
- بأي معنى يمكن اعتبار "العودة المؤجلة" شكلاً من أشكال الوجود السردي الذي يتجاوز حدود المكان والزمان؟

تنطلق هذه الدراسة من فكرة أساسها أن الرواية الفلسطينية لم تختزل الحنين في صورته الرومانسية، بل جعلته وعياً مقاوماً يعيد إنتاج المكان في الذاكرة واللغة معاً. فهي لا تستعيد الماضي بوصفه واقعاً مكتمل التحقق، بل تعيد تشكيله في نصوص مفتوحة على أفق العودة المستحيلة أو المؤجلة، لتغدو العودة نفسها بنية دائمة الحضور، وليتحول الحنين إلى طاقة نقدية في مواجهة الزمن الكولونيالي...

1-الحنين من النزعة الفردية إلى البنية الثقافية

يُعَدُّ الحنين من أبرز المفاهيم النقدية والثقافية التي شكّلت حيزًا واسعًا في الدراسات الأدبية، لكنه في السياق الفلسطيني يكتسب خصوصية مضاعفة تجعل منه موضوعًا إشكاليًا يتجاوز الحدود العاطفية الضيقة ليغدو أداة في مقاومة النسيان وإعادة تشكيل الذاكرة الجماعية. فالحنين الكولونيالي في الرواية الفلسطينية ليس مجرد استرجاع فردي أو نزعة رومانسية، بل هو تعبير عن صدمة جماعية متوارثة، نتجت عن الاقتلاع القسري الذي أحدثه المشروع الصهيوني منذ عام 1948. وهذا البعد يجعل من الحنين الفلسطيني مختلفًا عن غيره، إذ يرتبط بـ"جغرافيا مفقودة وزمن مكسور، لكنه يظل يتغذى من الأمل في العودة، حتى لو بقيت العودة مؤجلة" (الحاج، 2016، صفحة 94).

إن خصوصية الحنين الفلسطيني تكمن في كونه ناتجًا عن فعل استعماري مُمنهج، لا عن تحولات اجتماعية طبيعية. فالنكبة لم تكن مجرد حدث عابر، بل جرحًا مفتوحًا تمخّض عن تدمير المكان وتشتيت الإنسان، ما جعل الحنين يتحول إلى بنية ثقافية تمثل إحدى أهم أدوات التعبير عن الذات والهوية. ومن هنا فإننا أمام "حنين كولونيالي"؛ أي حنين يولد داخل فضاء استعماري قسري ويستبطن رفضه ومقاومته في آن واحد. وفي هذا الإطار يرى عز الدين المناصرة أنّ "الأدب الفلسطيني، منذ النكبة، مارس فعل التذكّر لا من باب الحنين البكائي، بل من باب توثيق الذاكرة ومقاومة الطمس" (المناصرة، 2013، صفحة 121).

إن التحول من النزعة الفردية إلى البنية الثقافية نقطة تحول جوهرية في فهم الحنين. فالنظرة النقدية المعاصرة تتجاوز اعتباره مجرد رد فعل عاطفي على فقدان الماضي، لترى فيه ظاهرة اجتماعية وثقافية مُنتجة. هذا التحول الفكري استند إلى أطر نظرية تميز بين أشكال الحنين، حيث تتجسد فيه آليتان: إحداهما تسعى لإعادة بناء الماضي بشكل مثالي، والأخرى تعترف بطبيعته المتغيرة والمتعددة الأوجه، مما يجعله ليس مجرد شعور سلبي، بل قوة فاعلة في تشكيل الوعي.

وعندما يصبح الحنين "بنية ثقافية"، فإنه يتحول إلى سردية جماعية تُساهم في تشكيل وعي الأمة أو الجماعة. هذا البُعد يفتح آفاقاً جديدة لتحليل النصوص، حيث لا يتم قراءة الحنين كعاطفة فردية، بل كعنصر بنيوي يُساهم في بناء الحبكة والشخصيات. يمكن للمقاربة النقدية أن تبحث في كيفية استخدام هذه البنية كأداة لاستكشاف قضايا الهوية والذاكرة والوطن. إن هذا التوظيف يعيد تعريف العلاقة بين الفرد والمجتمع، ويُظهر كيف يمكن للماضي أن يُصبح خطابًا مُقاومًا يُعيد إحياء الذاكرة المقموعة.

إن البنية الحكائية للحنين تهدف إلى الكشف عن كيفية استخدام الحنين كأداة للتعبير عن الرفض والصمود وإعادة تعريف الذات في مواجهة واقع مُتغير. هذه البنية تظهر من خلال الزمن السردي المتداخل، حيث يتم التنقل بين الحاضر والماضي لإحداث توتر سردي، ومن خلال الموتيفات والرموز التي تحمل دلالات الماضي. فالشخصيات نفسها يمكن أن تكون انعكاسًا لهذه البنية، إذ تعيش في حالة من التعليق بين زمنين، وتكافح لتجاوز الماضي المثالي أو الأليم. بذلك، يصبح الحنين أداة بليغة للتعبير عن الصراعات الداخلية والجماعية.

1-1 الحنين الكولونيالي ومفهوم الذاكرة الجريحة:

الحنين في الرواية الفلسطينية ليس مجرد نزوع عاطفي، بل هو عملية فكرية تُأسس علاقة الأديب الفلسطيني بالمكان والزمان. ولعل ما يميزه هو اتصاله الوثيق بالذاكرة الجمعية. فالذاكرة ليست خزانًا للأحداث الماضية فحسب، بل هي "ميدان صراع بين من يسعى إلى تثبيتها ومن يسعى إلى محوها" (الشحات، 2006، صفحة 58). وفي السياق الفلسطيني، يندرج الحنين ضمن هذه الجدلية فهو تمسّك بالماضي بوصفه حقيقة تاريخية، ومقاومة لمحاولات الاستعمار طمس تلك الحقيقة أو إعادة تأويلها لصالحه.

إنّ هذا البعد يجعل الحنين الفلسطيني مغايرًا لما طرحته الدراسات الغربية التي نظرت إلى الحنين بوصفه مرضًا نفسيًا أو نزعة رومانسية، كما في مؤلفات الروائي والكاتب الفرنسي " ميلان كونديرا" حول "الحنين والعزلة"، حيث قُدِّم بوصفه انحيازًا إلى ماضٍ متخيّل. لكن في الحالة الفلسطينية، فإن الحنين لا يقوم على تخييل ماضٍ مزيف، بل على استحضار ماضٍ تاريخي موثق، يفرض نفسه في السرد كذاكرة مقاومة. يقول فيصل درّاج: "الذاكرة الفلسطينية ليست محايدة، إنها

ذاكرة مقاومة لأنها تستحضر المأساة كفعل مستمر، ولأنها تنبني على الحنين إلى مكان لا يزال قائمًا في المخيلة رغم تدميره" (دراج، 2002، صفحة 133).

إن الجمع بين "الحنين الكولونيالي" و"الذاكرة الجريحة" يفتح آفاقًا نقدية عميقة، فهو لا يقتصر على استحضار الماضي، بل يعيد تشكيل كيفية فهمنا لهوية ما بعد الكولونيالية. الحنين الكولونيالي ليس مجرد شوق لماضٍ مضى، بل هو بنية أيديولوجية مُعقّدة تُنتِجها خطابات القوة والسلطة. إنه ليس عاطفة بريئة، بل هو آلية تُعيد تمثيل الماضي الاستعماري في صور مثالية أو رومانسية، وتُخفي في طياتها ممارسات القمع والعنف التي شكّلت ذلك العصر. هذه الآلية تهدف إلى تطهير الذاكرة من آثارها السلبية، وإعادة إنتاج سردية تاريخية تخدم مصالح الحاضر.

من هنا، ينشأ التفاعل مع مفهوم "الذاكرة الجريحة"، وهو مفهوم يتجاوز مجرد سرد الأحداث المؤلمة. الذاكرة الجريحة هي بنية سردية مُقاومة لا تنسى، بل تحمل ندوب الماضي وتُصرّ على سردها كما هي، دون تجميل أو تزييف. إنها تُمثل الوعي الجمعي للجماعات التي عانت من الاستعمار وتداعياته. ويصبح الحنين الكولونيالي محاولة للسيطرة على الذاكرة الجريحة وتطويعها، بينما تُقاوم الذاكرة الجريحة هذه المحاولة من خلال الإصرار على سرد الحقائق المؤلمة والمهملة.

وبهذا فإن سردية الحنين الكولونيالي التي تُحاول طمس الجرح، وسردية الذاكرة الجريحة التي تُصرّ على إبقائه مفتوحًا كعلامة على العدالة المعلقة. في هذا الصراع، تُصبح النصوص الأدبية والفنية مساحة لإعادة التفاوض مع التاريخ، وتُعيد صياغة العلاقة بين الماضي والحاضر، وتكشف عن آليات القوة الكامنة في إنتاج وتشكيل الذاكرة.

1-2 الحنين الكولونيالي كاستراتيجية مقاومة سردية:

إن تحليل الرواية الفلسطينية يكشف أنّ الحنين لم يكن في أي لحظة حالة سكونية أو انفعالًا بكائيًا. بل على العكس، تمّت إعادة صياغته ليكون طاقة سردية قادرة على مواجهة الحاضر. فالرواية الفلسطينية لم تكتف بتصوير مشاعر الفقدان، وإنما حولت الحنين إلى بنية مقاومة تعيد إنتاج الرموز والفضاءات المفقودة. يتجلى ذلك في رموز مثل "المفتاح"، الذي لم يعد مجرد قطعة حديدية بل صار علامة دلالية على الحق في العودة. وكذلك "شجرة الزيتون"، التي غدت أيقونة للصمود والاستمرارية رغم محاولات الاقتلاع.

يشير محمد برادة إلى أن "الرمز في الرواية الفلسطينية ليس أداة جمالية فقط، بل هو بنية دلالية مشحونة بالحنين، تترجم إرادة الصمود وتمنح القارئ إمكانات تأويلية تُبقي الذاكرة مفتوحة على المستقبل" (برادة، 2008، صفحة 77).

وهذا ما يجعل من الحنين الفلسطيني فعلاً نقديًا يعيد تشكيل الزمن فهو لا يستعيد الماضي ليستكين إليه، بل يستحضره ليقاوم الحاضر ويؤسس أفق المستقبل.

إن طرح "الحنين الكولونيالي كاستراتيجية مقاومة سردية" يمثل تحولًا جذريًا في فهمنا للعلاقة بين الذاكرة والسلطة. فبينما يُنظر إلى الحنين غالبًا على أنه ميل للماضي المثالي أو تعبير عن شوق سلبي، فإن هذا المنظور الجديد يرى فيه أداة فاعلة في يد المبدعين للتصدي للسرديات الكبرى المهيمنة. لا يعود الحنين هنا مجرد شعور، بل يصبح بنية سردية مُتعمدة تُستخدَم لإعادة التفاوض مع التاريخ وإعادة كتابة الهوية في سياقات ما بعد الكولونيالية.

تتجلى هذه الاستراتيجية المقاومة في قدرة الحنين على استعادة اللحظات المنسية أو المقموعة من الماضي. فبدلاً من الانسياق وراء السردية الاستعمارية التي تُصوِّر الماضي بشكل أحادي، يلجأ المبدع إلى الحنين لإنشاء مساحة سردية تُحيي فيها الأصوات المهمشة والتجارب المنسية. إنه لا يُعيد الماضي كما كان، بل يُعيد بناؤه كفعل سياسي يُقاوم النسيان القسري. يُصبح الحنين بذلك نوعًا من "الذاكرة المضادة" التي تُشكِّك في شرعية الماضي الذي تُروّج له السلطة، وتُقدِّم رواية بديلة تُعبّر عن معاناة وهوية الجماعات المستعمَرة.

هذه الاستراتيجية تدفعنا لجملة من التساؤلات. كيف يتم استخدام صور الماضي الأليمة أو حتى السعيدة ليكون لها أثر تحريضي؟ وكيف تُصبح الشخصيات الحالمة بالعودة أو بالماضي أبطالًا لا يستسلمون للواقع الراهن؟ إن الحنين في هذه الحالة ليس هروبًا من الحاضر، بل هو اشتباك معه من خلال الماضي. هو وسيلة لإعادة امتلاك التاريخ وإعادة صياغة المستقبل، مما يجعله أداة نقدية وسردية في غاية الأهمية في الدراسات ما بعد الكولونيالية.

1-3 الاغتراب والعودة المؤجلة:

يتداخل الحنين الكولونيالي أيضًا مع مفهوم الاغتراب الذي يعيشه الفلسطيني في المنافي. فالمنفى ليس مجرد مكان بديل، بل هو سياق وجودي يُعمّق الإحساس بالانفصال عن الجذور. ومع ذلك، فإن الرواية الفلسطينية تتعامل مع هذا الاغتراب بوصفه محفزًا لإعادة إنتاج الهوية عبر الحنين. ففي رواية "رجال في الشمس" لغسان كنفاني، مثلًا، يظهر الحنين إلى الوطن لا كحلم رومانسي بل كجرح مفتوح يقود الشخصيات إلى نهايتها المأساوية، في إشارة إلى أنّ العودة ليست سهلة ولا مضمونة. يقول كنفاني: "الوطن ليس حقيبة، والوطن هو الأرض والهوية، هو الماضي الذي يسكننا قبل أن نسكنه" (كنفاني، 1963، صفحة 41).

هذا التوتر بين الحاضر الممزق والماضي المفقود يولد ما يمكن تسميته بـ"سرديات العودة المؤجلة"، حيث تتجلى العودة في النصوص الفلسطينية كحلم لا يتحقق لكنه يظل دائم الحضور. فهي عودة مؤجلة لا لأن الفلسطيني تخلّى عنها،

بل لأنها معلّقة قسرًا بفعل الاستعمار. وهنا يبرز الحنين كبنية سردية تُبقي العودة ممكنة، حتى في حال تعذر تحققها الواقعي.

إن الربط بين مفهومي "الاغتراب" و"العودة المؤجلة" يفتح آفاقاً نقدية لفهم التجربة الإنسانية في سياقات الشتات والصراعات. فالاغتراب هنا ليس مجرد شعور بالوحدة أو الغربة، بل هو حالة وجودية مُعقدة، تُشكِّل وعي الفرد وتُحدد علاقته بالمكان والزمن. إنه ليس فقط انفصالاً عن الوطن، بل هو انفصال عن الذات التي كانت تنتمي إلى ذلك الوطن. ويُصبح الاغتراب بهذا المعنى قوة محركة تُنتِج خطاباً سردياً خاصاً.

من هنا ينشأ التفاعل مع مفهوم "العودة المؤجلة". فالعودة ليست مجرد حدث مستقبلي مُتوقع، بل هي بنية سردية أساسية تُسيطر على حياة المغترب. إنها تُمثل أفقاً مُعلقاً بين الماضي والحاضر، وتُؤجِّل اكتمال الهوية وتُبقيها في حالة من البحث المستمر. هذه العودة المؤجلة ليست بالضرورة عودة مادية إلى الوطن، بل قد تكون عودة إلى "الذات" التي فُقدت في رحلة الاغتراب. يُصبح النص الأدبي في هذه الحالة مساحة لاستكشاف هذا التأجيل.

إن الاغتراب والعودة المؤجلة ليسا حالتين منفصلتين، بل هما وجهان لعملة واحدة. الاغتراب يُغذّي الرغبة في العودة، والعودة المؤجلة تُعمّق الإحساس بالاغتراب. هذا الجدل المستمر بين الحالتين يُنتِج نصوصاً غنية بالتساؤلات حول الهوية، الذاكرة، والانتماء. إنها تُقدم رؤى عميقة حول كيفية بناء الذات في ظل ظروف غير مستقرة، وكيف يُصبح التأجيل نفسه، بدلاً من العودة، هو الحقيقة الوحيدة الممكنة.

1-4 الحنين والهوية الثقافية:

لا يمكن فهم الحنين الفلسطيني بمعزل عن الهوية الثقافية التي يعيد تشكيلها. فالرواية الفلسطينية تستعمل الحنين كأداة لتعريف الذات في مواجهة الآخر الاستعماري. فكل استحضار للمكان والذاكرة هو فعل إعادة بناء للهوية الجمعية. " فالهوية الفلسطينية تظل معلّقة بين مكان مفقود وزمن يتجدد باستمرار عبر الذاكرة، والحنين هو الخيط الذي يربط بينهما" (أبو إياد، 1978، صفحة 112).

إنّ هذا البعد يجعل الحنين الفلسطيني ليس فقط أداة للتذكر، بل أداة للوجود ذاته. فالفلسطيني في الرواية لا يكون فلسطينيًا إلا باستحضار ذاكرته، والحنين هنا هو الوسيط الذي يعيد ربط الفرد بجماعته وتاريخه وأرضه. من هنا يمكن القول إنّ الحنين الكولونيالي في الأدب الفلسطيني هو الركيزة الأساسية في إعادة إنتاج الهوية الثقافية. فمفهومي "الحنين" و"الهوية الثقافية" يمثل نقطة التقاء محورية في الدراسات النقدية، إذ لا يُنظر إلى الحنين كعاطفة فردية بحتة، بل كآلية

أساسية تُشارك في بناء الهوية وتشكيلها. فالحنين هنا ليس مجرد شوق لماضٍ مضى، بل هو بنية ثقافية مُعقدة تُنتِجها الجماعات، وتُعيد من خلالها تعريف نفسها في مواجهة التحديات الراهنة. إنه قوة فاعلة تُعيد بناء الذاكرة الفردية والجمعية، وتُشكِّلها في ضوء الحاضر.

تتجلى هذه العلاقة في النصوص الأدبية والفنية حيث يُستخدم الحنين كأداة لإعادة امتلاك الماضي وإعادة صياغته. فالهوية الثقافية لا تُبنى على أساس الحاضر فقط، بل تتشكل بشكل أساسي من خلال العلاقة المعقدة بالماضي. يُصبح الحنين في هذا السياق وسيلة لإحياء الرموز، الطقوس، والقصص التي تُشكِّل الذاكرة الجمعية. إنها تُعيد إنتاج رموز حيّة تُبقي الهوية على قيد الحياة وتُعطيها عمقاً تاريخياً.

إن الحنين ليس هروبًا من الواقع، بل هو اشتباك معه. إنه يُشكِّل الذاكرة كمساحة للتفاوض، حيث تُصبح النصوص الأدبية والفنية مختبرًا لإعادة كتابة التاريخ الثقافي. هذه البنية السردية تُظهر أن الهوية الثقافية هي هوية ديناميكية، لا تستسلم للوضع الراهن، بل تُعيد تعريف نفسها باستمرار عبر استحضار الماضي، ليس كنقطة نهاية، بل كنقطة انطلاق نحو المستقبل.

1-5 الحنين الكولونيالي وبناء الهوية الفلسطينية المعاصرة:

تظهر الهوية الفلسطينية المعاصرة بوصفها هوية منقسمة بين الداخل والخارج، بين مَن يعيش في الوطن المقيّد بالاحتلال ومَن يعيش في الشتات. هذا الانقسام يعيد تشكيل وعي الفلسطيني بذاته، بحيث تصبح الرواية وسيطاً أساسياً للحفاظ على وحدة الذاكرة. كما يشير فيصل درّاج: "الهوية الفلسطينية في المنفى لا تتحدد بما هو حاضر، بل بما هو غائب، أي بما سُلب، ولذلك يظل الحنين رابطاً بين الفرد وذاكرته الجمعية" (دراج، 2002، صفحة 47).

كما تتكرر في الرواية الفلسطينية الرموز المعروفة. هذه الرموز لا تُقرأ بوصفها أشياء مادية فقط، بل باعتبارها علامات دلالية تؤكد الانتماء. يقول عبد الرزاق عيد: "المفتاح رمز للبيت المفقود، لكنه أيضاً رمز للحق الذي لا يسقط بالتقادم" (عيد، ربيع 1999، صفحة 32). وهكذا تتحول الرموز إلى آليات سردية تعيد صياغة العلاقة بالأرض.

يُظهر الحنين الفلسطيني طابعه الخاص بكونه ليس استعادة جامدة للماضي، بل مشروعاً مستقبلياً. فالحنين هنا لا يسعى إلى استعادة "فردوس مفقود" فقط، بل إلى إعادة بناء وطن متخيَّل يتجاوز جراح الماضي. وفي هذا السياق تكتب سلمى الخضراء الجيوسي: "الرواية الفلسطينية لا تكتفي بالبكاء على الأطلال، بل تفتح أبواب المستقبل على أمل العودة وإن تأجلت" (الجيوسي، 1997، صفحة 88).

ويُمكن القول إن الكتابة تُعد بديلا للعودة حين يُسلب الوطن الواقعي، تصبح الكتابة بديلاً رمزياً للعودة. فالرواية لا تستعيد المكان فقط، بل تبنيه سردياً، لتجعل من المتخيل وطناً يعيش في اللغة. يوضح غسان كنفاني ذلك بقوله: "إننا لا نملك سوى الكلمات لنحفظ بها الوطن من الضياع" (كنفاني، 1963، صفحة 15). ومن ثم تصبح الرواية الفلسطينية ممارسة للعودة المتخيَّلة التي تُبقي الوطن حياً في الذاكرة والخيال.

إن طرح العلاقة بين "الحنين الكولونيالي" و"بناء الهوية الفلسطينية المعاصرة" تُظهر كيف يمكن للماضي أن يكون أداة حاسمة في تشكيل وعي الحاضر. الحنين هنا ليس مجرد شعور بالافتقاد إلى ماضٍ مُثالي، بل هو آلية سردية مُعقّدة تُستخدَم لإعادة التفاوض مع تاريخ مُشوّه.

من هنا ينشأ التفاعل مع بناء الهوية الفلسطينية المعاصرة، التي لا تُبنى على أساس الحاضر فقط، بل تتشكل بشكل أساسي من خلال العلاقة المعقدة بالماضي. إن هذه الهوية تُبنى على تناقض جوهري: فهي تُقاوم السردية الكولونيالية التي تُعيد صياغة الماضي وتُبرّره، وفي الوقت نفسه تستخدم الحنين كسلاح لإحياء ذلك الماضي. يُصبح الحنين في هذا السياق وسيلة لإعادة امتلاك الأرض، المكان، والزمن من خلال الذاكرة.

2- سرديات العودة المؤجلة في الرواية الفلسطينية:

إذا كان الحنين الكولونيالي قد مثّل البنية النظرية الأوسع التي تؤطر الرواية الفلسطينية، فإنّ "العودة المؤجلة" تعدّ التجسيد السردي الأبرز لهذه البنية. فالعودة، في المخيال الفلسطيني، ليست حدثًا زمنيا محدّدًا بقدر ما هي أفق مفتوح يُعاد إنتاجه باستمرار عبر الأدب. وهنا تكمن قوة السرد الفلسطيني: أنه يحوّل العودة من فعل سياسي مؤجل إلى بنية أدبية ودلالية تسكن النصوص، وتمنحها طاقتها التخيلية.

إن "سرديات العودة المؤجلة في الرواية الفلسطينية" لا تُعد مجرد استعراض لأحداث، بل هي بنية سردية أساسية تُشكّل الوعي الفلسطيني وتُعيد إنتاج مفهوم الزمن. هذه السرديات لا تركز على العودة كحدث مستقبلي محدد، بل على حالة التأجيل نفسها، مما يجعلها تجربة وجودية مُعقدة. إن هذا التأجيل ليس سلبياً، بل هو قوة محركة تُنتج خطاباً مُقاوماً يُبقي على الحلم حياً، ويُشكّل في الوقت نفسه تحدياً لطبيعة السرديات الزمنية التقليدية.

تتجلى هذه السرديات في الرواية الفلسطينية كأداة لإعادة بناء العلاقة بين الفرد والأرض، حيث تُصبح العودة حلماً يُغذّي الذاكرة ويُحرّك السرد. إنها لا تُعيد الماضي كما كان، بل تُعيد بناؤه كفعل سياسي يرفض النسيان. تُصبح

الشخصيات في هذه النصوص حاملي هذه السردية، إذ تعيش في حالة معينة، وتكافح لتجاوز الواقع الراهن من خلال التشبث بالماضي وبأمل العودة. هذا التوتر بين الحاضر المؤلم والماضي المثالي هو ما يُنتج النصوص الأكثر عمقاً.

أن العودة المؤجلة ليست مجرد حبكة روائية، بل هي استراتيجية سردية تُستخدم للتعبير عن الصمود. إنها تُشكِّل الذاكرة كمساحة للمقاومة، حيث يُصبح التأجيل بحد ذاته فعل صمود يُبقي على القضية حية. هذه السرديات تُظهر أن الهوية الفلسطينية هي هوية ديناميكية، لا تستسلم للوضع الراهن، بل تُعيد تعريف نفسها باستمرار عبر استحضار الأمل، ليس كنقطة نهاية، بل كنقطة انطلاق نحو الأمام.

2-1 غسان كنفاني والعودة كجرح مفتوح:

يُعتبر غسان كنفاني من أبرز الروائيين الذين صاغوا مفهوم العودة المؤجلة عبر أعماله، حيث قدّمها بوصفها مأساة جماعية لا تُختصر في بعد شخصي. ففي رواية "رجال في الشمس" (1963)، لا تُقدَّم العودة كحلم رومانسي، بل كجرح يستنزف الشخصيات ويدفعها إلى مصير مأساوي. فالشخصيات الثلاث تسعى إلى العبور نحو "الخلاص"، لكنها تفشل في النهاية، لتعلن الرواية أنّ العودة ليست مجرد قرار إرادي، بل مشروع مؤجل بفعل السياقات الاستعمارية والسياسية. وهنا يكتب كنفاني: "الوطن ليس حقيبة، والوطن هو الأرض والهوية، هو الماضي الذي يسكننا قبل أن نسكنه" (كنفاني، 1963، صفحة 41).

هذا التصور يُبرز الحنين الكولونيالي كبنية مأساوية، لكنه في الوقت ذاته يرسّخ فعل المقاومة من خلال كشف استحالة التنازل عن العودة. وبذلك تتحول العودة في نصوص كنفاني إلى سؤال وجودي، يظل معلقًا لكنه لا يزول. وقد ذهب فيصل درّاج إلى القول: "إنّ كنفاني صاغ مفهوم العودة لا كتحقق، بل كجراح مفتوحة، تجعل الذاكرة ساحة للنضال المستمر" (دراج، 2002، صفحة 141).

2-2 سحر خليفة واستعادة المكان عبر السرد النسوي:

تقدّم سحر خليفة بُعدًا مختلفًا للعودة المؤجلة، حيث تسعى من خلال كتاباتها إلى إعادة بناء الذاكرة من منظور نسوي، يجعل المرأة الفلسطينية فاعلة في عملية استعادة المكان. ففي رواية "الميراث" (1997)، نرى كيف أن عودة البطلة من المنفى لا تكتمل، لأن الوطن نفسه لم يعد كما كان، إذ تغيّر المكان وتحوّلت الذاكرة. وهنا تُبرز الرواية أنّ العودة ليست مجرد انتقال جغرافي، بل إعادة مواجهة مع تاريخ مثقل بالهزائم والتحولات.

تكتب خليفة: "العودة ليست رجوعًا إلى حجر ولا إلى بيت فقط، إنها رجوع إلى هوية ممزقة، تُعيدك إلى السؤال عمّن أنت وكيف تعود" (خليفة، 1997، صفحة 132). هذا المنظور يوسع معنى العودة المؤجلة لتصبح فعلًا مركبًا: جسديًا ووجوديًا وثقافيًا. فهي لا تُختزل في استعادة المكان، بل في استعادة الذات الفلسطينية الممزقة بفعل الاستعمار والتشرد. وهنا تكمن أهمية كتابات خليفة، التي رأت أنّ الحنين ليس مجرد " نوستالجيا، بل قوة نقدية تكشف تناقضات الواقع الفلسطيني وتدعو إلى إعادة صياغة المجتمع" (تاجا، 2014، صفحة 105).

2-3 ربعي المدهون والعودة كخيال سردي:

في رواية "مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة" (2015) لربعي المدهون، تتخذ العودة المؤجلة شكلًا أكثر تركيبًا، إذ تتحول إلى لعبة سردية يتداخل فيها الواقعي بالمتخيل. فالرواية تنسج قصصًا متوازية حول شخصيات تعيش في المنفى وتحاول استعادة الوطن عبر السرد نفسه، وكأن الكتابة هي شكل العودة الممكنة.

يكتب المدهون: "أعود بالكتابة حين أعجز عن العودة بالجسد، أستعيد المدن بالحبر حين تضيع في الخرائط" (المدهون، 2015، صفحة 89). هذه المقولة تكشف البعد الميتاسردي للعودة في الرواية الفلسطينية الحديثة، حيث تتحول العودة إلى فعل تخييلي يُعيد تشكيل الجغرافيا الضائعة في النصوص. وهو ما دفع صالح خليل إلى القول: "الرواية الفلسطينية في المنفى لا تعيد إنتاج الماضي فقط، بل تبتكر زمنًا بديلًا، تُبقي فيه العودة قائمة عبر المخيلة السردية" (أبو أصبع، 2001، صفحة 91).

2-4 جدلية الأمل واليأس في سرديات العودة:

إن تحليل هذه النماذج الروائية السابقة يكشف أنّ العودة المؤجلة ليست مجرد موضوع بل هي بنية سردية تتغذى على جدلية الأمل واليأس. ففي الوقت الذي تُظهر فيه النصوص استحالة العودة الفعلية، فإنها تزرع بذور الأمل عبر الحنين الكولونيالي. هذه الجدلية تمنح الرواية الفلسطينية فرادتها، إذ تجمع بين المأساة والقدرة على المقاومة.

وعليه فإن "الرواية الفلسطينية لا تُنكر الفقدان، لكنها تجعل منه طاقة رمزية لإبقاء العودة ممكنة ولو كفعل تخييلي" (أبو مطر، 1990، صفحة 73). وهكذا، فإن سرديات العودة المؤجلة هي في جوهرها سرديات مقاومة، لأنها تؤكد أن العودة ليست غائبة بل فقط مؤجلة، وأنها تظل حاضرة كأفق تاريخي يوجّه الهوية الفلسطينية.

إن تناول "جدلية الأمل واليأس في سرديات العودة" يمثل مقاربة نقدية عميقة لا تكتفي بتحليل المشاعر السطحية، بل تتغلغل في بنية السرديات نفسها. ففي هذه النصوص، لا يُعدّ الأمل واليأس حالتين متناقضتين تماماً، بل هما قوتان

متداخلتان، تُشكلان معاً بنية سردية مُعقّدة تُحرّك الأحداث وتُشكّل الشخصيات. إن هذا التفاعل بينهما يُنتِج خطاباً سردياً لا ينتهي، بل يُبقي على حالة من التوتر المستمر، وهو ما يمنح النصوص قوتها.

تتجلى هذه الجدلية في الرواية كأداة لبناء الشخصيات التي لا تستسلم لليأس تماماً، ولا تنعم بالأمل بشكل مطلق. إنها شخصيات تعيش في منطقة وسطى، حيث تُقاوم اليأس من خلال التمسك بذاكرة الماضي، وفي الوقت نفسه تُكافح الأمل الزائف من خلال مواجهة الحقائق المرّة للحاضر. الأمل هنا ليس وعداً أكيداً بالعودة، بل هو فعل مقاومة يرفض الاستسلام، بينما اليأس ليس استسلاماً، بل هو وعي مُرّ بواقع مُعقّد.

أن سرديات العودة لا تُقدّم حلولاً سهلة، بل تُقدّم أسئلة عميقة حول طبيعة الانتماء، الهوية، والذاكرة. إنها تُظهر أن الأمل واليأس ليسا نقيضين، بل هما وجهان لعملة واحدة، تُساهمان معاً في تشكيل وعي الفرد والجماعة. هذا التفاعل يُجعل النصوص الأدبية مساحة للتأمل في كيفية البقاء على قيد الحياة، ليس بالانتصار، بل بالاستمرار في الصراع، مما يُكسبها عمقاً وجودياً لا يُضاهى.

خاتمة

- لقد حاولت هذه الدراسة أن تجيب عن سؤال جوهري: كيف تبني الرواية الفلسطينية في أدب الشتات بنية حنين كولونيالي تُحوِّل الذاكرة الممزقة إلى أفق مقاوم، وكيف تعيد صياغة "العودة المؤجلة" بوصفها سردية وجودية لا تنفصل عن الوعي الجمعي الفلسطيني. وتبيّن لنا أن هذا الحنين ليس نوستالجيا فردية عابرة، بل هو أداة فكرية تعيد إنتاج المكان الضائع في المخيلة وتؤكد استحالة محو الهوية.
- إن الحنين الكولونيالي في الرواية الفلسطينية يتجاوز مفهوم الحنين التقليدي ليغدو بنية سردية واعية، مرتبطة بالذاكرة الجماعية ومرهونة بالفعل الاستعماري.
- تجلّت سرديات العودة المؤجلة بأشكال متعدّدة: كجرح مفتوح في روايات غسان كنفاني، وكإعادة بناء نسوي للمكان في نصوص سحر خليفة، وكفضاء تخييلي في أعمال ربعي المدهون.
- كشفت النصوص أنّ العودة ليست حدثًا زمنيًا محدّدًا، بل مشروعًا مفتوحًا يتغذى على التوتر بين الأمل واليأس، ويؤسس لخطاب سردي مقاوم.
- أكّدت الرواية الفلسطينية أنّ الأدب قادر على أن يكون خزانًا للذاكرة الوطنية، يحفظ ما تعجز السياسة عن تثبيته.

- إن السرد الروائي لم يقتصر على تسجيل المأساة، بل تجاوزه إلى ابتكار أشكال جديدة للانتماء عبر الرموز (المفتاح، الزيتون، البيت)، التي تحوّلت إلى حوامل دلالية للهوية.
- الحنين الكولونيالي ليس حالة سكونية بل هو طاقة فعل، تُمكّن الرواية من تحويل الفقدان إلى مقاومة رمزية.
- قدّمت هذه الدراسة محاولة لتفكيك مفهوم الحنين الكولونيالي من منظور عربي، بعيدًا عن إسقاطات النظريات الغربية التي عجزت عن استيعاب خصوصية التجربة الفلسطينية.
- إن المقاربة النقدية للرواية الفلسطينية تكشف عن وعي عميق بإشكالية الزمن والذاكرة والانتماء في ظل الاستعمار.
- أسهمت هذه الدراسة في توضيح أنّ الأدب لا يكتفي بالاستعادة، بل يصوغ سرديات بديلة تُبقي الوجود الفلسطيني حاضرًا، ولو في فضاء النصوص.

قائمة المراجع:

1. أحمد أبو مطر. (1990). الرواية في الأدب الفلسطيني. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
2. بسام الحاج. (2016). الرواية النسائية الفلسطينية 1973- 2000. فلسطين: وزارة الثقافة الفلسطينية.
3. ربعي المدهون. (2015). مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
4. سحر خليفة. (1997). الميراث، رواية. بيروت: دار الآداب للنشر.
5. سلمى الخضراء الجيوسي. (1997). موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر 1. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
6. صالح خليل أبو أصبع. (2001). الرواية الفلسطينية والمنفى، الجزيرة العربية مكانا. دراسة في التجربة الروائية الفلسطينية، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات.
7. صلاح خلف أبو إياد. (1978). فلسطيني بلا هوية. الأهلية للنشر والتوزيع.
8. عبد الرزاق عيد. (ربيع 1999). دلالة الرمز في الرواية الفلسطينية (الإصدار 59). رام الله، فلسطين: مؤسسة الكرمل للنشر والتوزيع.
9. عز الدين المناصرة. (2013). الكف الفلسطيني تناطح المخرز الأمريكي. عمان: الصايل للنشر والتوزيع.
10. غسان كنفاني. (1963). رجال في الشمس، رواية (المجلد 1). بيروت: أسامة مولاد.

11. فيصل دراج. (2002). ذاكرة المغلوبين والصهيونية في الخطاب الثقافي الفلسطيني (المجلد 1). المغرب: المركز الثقافي العربي.

12. محمد الشحات. (2006). سرديات المنفى، الرواية العربية بعد عام 1967 (المجلد 1). الدوحة: أزمنة للنشر والتوزيع، الدوحة.

13. محمد برادة. (2008). الرواية ذاكرة مفتوحة (المجلد 1). القاهرة: دار آفاق للنشر والتوزيع.

14. وحيد تاجا. (2014). الرواية الفلسطينية.. حوارات نقدية. فلسطين: دار الجندي للنشر.